معجزات رسول الله ﷺ

المعجزات : جمع كلمة معجزة، من الفعل (أعجز) والذى يعنى أنّ طرفاً ما يأتى بفعلٍ ، لا يستطيع الآخرون الإتيان بمثله . وهذا هو معنى المعجزة التى تأتى مرافقة لنبىٍّ من أنبياء الله؛ لتكون قرينة واضحة جليَّة على صدق ذلك النبىّ.

فمن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يجعل الخطاب العقلى وحده وسيلة الدعوة إلى شرعه سبحانه ؛ لأن الإنسان تهيمن عليه الطبيعة الماديَّة ، لذلك كانت المعجزة الماديَّة من أكثر الوسائل إقناعاً للإنسان . . فعندما يرسل جل شأنه رسولاً إلى قومه ليهديهم إلى وحدانيته سبحانه ، وإلى شرعه القويم ، يؤيّده ببعض الظواهر الماديّة الخارقة للنواميس الطبيعيّة ؛ لتجعلهم يقولون:

لو كان هذا الذى يدَّعى النبوّة كاذباً لما تفرّد بهذا الفعل، الذى يخرج عن نطاق القدرات البشريَّة المعهودة لدينا، فلابد، إذاً، أن يكون كما قال نبيَّاً مُرْسَلاً، أرسله إله واحد أحد، لا يُعْجزه شىء لا فى الأرض ولا فى السماء.

فكانت معجزات موسى عليه السلام، فى بعضٍ منها ، من جنس ما برع فيه قومه والبلد الذى كانوا يعيشون فيه. وهو السحر، فغدت العصا، بعد أن ألقاها، أفعى حقيقيَّة، ويده غدت بيضاء من غير سوء، تبهر الناظرين . .

وعيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمة والأبرص، ويحيى الموتى . . إلخ لأنّ قومه كانوا قد برعوا فى علوم الطبّ ، فجاءهم بأفعالٍ من جنس ما برعوا فيه. .

فكل نبىّ من الأنبياء لا يخلو من معجزات ، يجريها رب العالمين على يديه؛ لتكون دليلاً له، أمام قومه، على صدقه فى دعوته التى يدعو بها.

وكذلك كان الشأن مع محمد ﷺ ، بل وأكثر من ذلك؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأكرمهم جميعاً عند الله تعالى، ورسالته كانت، وما زالت ، أعظم رسالةٍ ، يلقيها رب العالمين إلى عبادة.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[التوبة:٣٣].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨].

ولكن عقول المسلمين فى كل زمان ومكان تكاد أن تخلو من ذكر هذه المعجزات التى أجراها ، جل شأنه، على يدى رسوله الأكرم، فى ظل هيمنة المعجزة الكبرى والآية العظمى، الباقية إلى يوم القيامة ، والمتجددة فى كل حين وأوان ، القرآن العظيم.

فما هى طبيعة هذه المعجزة الكبرى؟ وهل القرآن وحده، من بين كتب الله تعالى، الذى حاز على هذه الصفة؟

أولاً : معجزة القرآن الكريم :

قيل فيها : إن العرب أمةٌ ، برعت فى الفصاحة والبيان، ولذلك جاء القرآن الكريم من جنس ما برعوا فيه، فكان آية عُظمى فى الفصاحة والبيان. وهو قول لنا فيه حديث سيأتى لاحقاً.

يقول تعالى متحدّياً الإنس والجن:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء:٨٨].

أى : لو اجتمعت ملايين الإنس مع ملايين الجن، ووحّدوا جهودهم وأعان بعضهم بعضاً؛ لكى يأتوا بمثل هذا القرآن، لما استطاعوا.

وبهذا القول يصبح القرآن معجزة ، لا لقومٍ بعينهم ، بل للإنس جميعاً فى كل زمان ومكان، ولا لجنس بعينه، بل لكل الأجناس المعنيَّة بالخطاب على هذه الأرض: الإنس والجن.

وقد نزل جل شأنه فى تحدّيه إلى عشر سور من القرآن الكريم فقال:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[هود:١٣، ١٤].

بل وتحدّاهم جل شأنه بأقل من ذلك ، فقال:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة:٢٣، ٢٤].

فها هو جل شأنه يصرّح لهم بالنتيجة التى سيصلون إليها إن قبلوا بالتحدى وهو قوله : ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾.

فما هو وجه الإعجاز فى هذا الكتاب العظيم؟

١ - قال الأولون : إن معجزة القرآن كانت فى ما برع فيه العرب من الفصاحة والبيان.

فهل هذا فقط هو وجه الإعجاز فى كتاب الله ، أم أن هناك أموراً أخرى؟

أ - القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولا يمكن لأىّ كلام مهما كان ، أن يشبه كلامه سبحانه فى البراعة والفصاحة والبيان.

ولكن المعجزة بهذا المعنى لا تكون مقصورة على القرآن الكريم ، بل تشترك معه فيها كلُّ الرسالات، لأنّها فى حال تدوينها من قِبَل الرسل، لا تخرج عن كونها كلام الله تعالى، الذى اتفقنا على أنه لا يدانيه أى كلام من كلام المخلوقين.

ب- فإذا ما اشتركت الرسالات السماوية مع القرآن الكريم فى معجزة البيان، فقد القرآن خصوصيته التى تجعله متميّزاً عنها بروعة البيان، ثم إن العرب قديماً كانوا أرباب الفصاحة والبيان، مما جعلهم مؤهلين لإدراك معجزة البيان. أمّا الآن، فإنّ قلة قليلة هى التى تستطيع أن تدرك من أسرار البيان ما يجعلها تدرك تمام الإدراك روعة البيان فى القرآن الكريم، والإعجاز الذى يتصّف به.

أما الآخرون فليس بمقدورهم أن يدركوا ذلك؛ لعدم إلمامهم باللغة العربية، وهو أمر من شأنه أن يقضى على أثر المعجزة فى القلوب والعقول، وبالتالى يسدّ الطريق أمام الناس ، ليحرمهم الاستزادة من الإيمان.

٢ - فالقرآن الكريم معجزة الله تعالى، المتجددة على مرّ العصور، ولكى يحقق جل شأنه الحياة لهذه المعجزة، يسّر للإنسان الحصول على الأدوات التى تمكّنه من إدراك هذه المعجزة، وهى أدوات العلم الحديث، الذى مكنّ الإنسان من سبر أغوار الخلق فى الإنسان وفى غيره من الموجودات، ولذلك أدرج جل شأنه العديد من حقائق الوجود فى كتابه الكريم، فإذا ما استطاع الإنسان استكشافها، ووجد أن القرآن الكريم قد أشار إليها، أدرك أنه كتاب الله تعالى، بعد علمه بأن النبى الذى أرسل به كان أميّاً، من أمّة أمية ، لا تقرأ ولا تكتب، قال تعالى:

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[**فصلت** :٥٣].

وليس المجال مجال استعراض لتلك الشواهد، فمن أراد الإطلاع عليها فليرجع إليها فى مظانّها.

٣ - ومن مظاهر هذه المعجزة، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، أن الله تعالى تكفّل بحفظها، فقال:

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[**الحجر** :٩].

والدليل على حفظه، وعدم وصول اليد البشرية إليه بالتحريف أو التزوير قوله سبحانه:

﴿ .. **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾[**النساء** :٨٢].

٤ - فالقرآن الكريم معجزٌ من أىّ وجه أخذته، لأنه كتاب اللَّه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقدً قال فيه رسول الله ﷺ : «**هو حبل اللَّه المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يملّه الأتقياء ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه**»[رواه الترمذى].

ثانياً: معجزات محمد ﷺ المادّية:

أ - إن المعجزات المادية التى كانت على عهد رسول اللهﷺ كانت فى المستوى الذى يتناسب مع تفكير القوم فى ذلك الآوان، فلم يكن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾[القيامة:٤]. يحمل من الإشارات الإعجازية ما يحمله فى زماننا هذا، وغير ذلك من الآيات العلميَّة التى لم يكن بمقدور القوم إذ ذاك أن يطّلعوا على أركانها.

ولأن المعجزة يُجريها جل شأنه على يد نبيِّه، لتكون حجَّة عليهم فى الدنيا والآخرة، كان من اللازم أن تكون المعجزة فى الصورة العقلية التى تتناسب مع مدارك القوم. فسجّل لنا الأثر عن رسول الله ﷺ العديد من المعجزات الماديَّة، التى لا يملك العقل معها إلا الإيمان بأن صاحب هذه الأفعال لم يأت بها فى نطاق الممكن من قدرات الإنسان، إنما حقّقها بفعل قدرة خلاقة جبارة، أخبر رسول اللهﷺ بأنها قدرة الله تعالى.

ب- والمتتبع لهذه المعجزات يلاحظ إغفال الذاكرة المسلمة لها، مع أنها معجزات عظيمة، لا تقل شأناً عن معجزات موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام، وغيرهم من الأنبياء . . وقد يُبرَّر ذلك بأن الناس ما عادوا يحتاجون إلى تلك المعجزات الماديَّة، بعد أن أصبحوا أسرى اللغة الروحيَّة فى كتاب الله تعالى.

ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى التذكير بهذه المعجزات، لما فى ذلك من إبراز لقدره ﷺ، وإبراز لحقائق العلاقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

جـ- ونلاحظ فى معجزات رسول الله ﷺ أنها لم تأت فى باب واحد أو بابين كما هو الشأن مع الأنبياء الآخرين بل انساقت إلى كل الأشكال الممكنة فى حياة الإنسان على هذه الأرض.